الدرس الرابع والعشرون

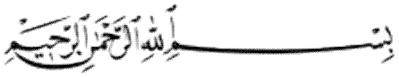

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [النساء:٥١] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**)) أي: ما جاء من دلائل وشواهد في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه من أن بعض هذه الأمة أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم تعبد الأوثان؛ أي تقع في عبادة الأوثان .

وأورد رحمه الله هذه الترجمة بعد تراجم عديدة حذَّر فيها من الشرك وبيَّن فيها خطره ووجوب الخوف منه ، وأيضاً تراجم عديدة حذَّر فيها من الوسائل والطرائق والذرائع المفضية إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى وأن النبي عليه الصلاة والسلام حمى حِمى التوحيد وسدَّ كل بابٍ يفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ؛ فلما بيَّن ذلكم رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة على وجه التحذير والإنذار أخذاً من نصوص الكتاب والسنة أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان ، أي أنه مع كثرة الأدلة في التحذير من الشرك والإنذار من عبادة الأوثان وخطورة هذا الأمر وشدة عقوبة صاحبه فإنه مع ذلك كله سيوجد في الأمة –أي أمة محمد عليه الصلاة والسلام– من سيقع في عبادة الأوثان ، وذلكم بسبب الجهل بالدين بل الجهل بأصل الدين وأساسه الذي عليه يبنى وهو توحيد الله تبارك وتعالى وإخلاص الدين له جل وعلا .

والمسلم إذا عرف من خلال هذه الترجمة وما ساقه فيها المصنف رحمه الله تعالى من شواهد ودلائل من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام من أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان يفيد من ذلك الخوف من الشرك والحذر من الوقوع فيه ؛ لأن نصوصاً كثيرة – سيأتي شيء منها في هذه الترجمة– تدل على أن بعض الأمة سيقع في عبادة الأوثان ؛ إذاً لابد أن يخاف الإنسان على نفسه ، وأن يحذر أشد الحذر من الشرك وأن يجتهد في البعد عنه ، وأن

يدعو الله كثيراً أن يعيذه منه وفي دعاء إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] .

فإذاً هذه الترجمة مفيدة جداً فيما يتعلق بالتوحيد وفهمه والحذر من ضده وهو الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، حيث يُعلم من خلال هذه الترجمة أن بعض هذه الأمة ستقع في عبادة الأوثان ؛ إذاً لابد أن يكون المسلم على حذر من ذلك وعلى معرفة بالشرك من أجل أن يتقيه ، إذ كيف يتقي من لا يدري ما يتقي ، من لا يدري ما هو الشرك وما هي حقيقته كيف يتقيه !! فهذه الترجمة مفيدة في هذا المعنى فائدة عظيمة جداً .

والأوثان في قوله ((**تعبد الأوثان**)) هو كل ما قُصد وعُبد غير الله تبارك وتعالى ؛ بأن صُرفت له العبادة أو صُرف له شيء منها ، ولا يختص الوثن بالصنم ؛ بل كل ما عُبد من صنم أو شجر أو حجر أو قبر ، وقد مر معنا في ترجمة سابقة قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد)) مما يدل على أن القبر إذا عُبد صار وثنًا ، قبر الصالح أو غيره إذا عُبد صار بهذه العبادة وثناً ولهذا دعا النبي عليه الصلاة والسلام وأجاب الله دعاءه فقال ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)) .

أورد رحمه الله تعالى في هذه الترجمة ثلاث آيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث .

الآية الأولى : قول الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١] ، والآية الكريمة تتعلق باليهود وأنَّ منهم من كان من عبدة الأوثان ، من كان يعبد الأوثان متقرباً إليها صارفاً لها أنواعاً من العبادة وأن هذا أمرٌ وُجد في اليهود فيهم من كان يعبد الأوثان ، فيقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ .

وقد ذكر العلماء للآية سبب نزول وهو: أن حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف وهما يهوديان ذهبا إلى مكة والتقيا بكفار قريش ، فقال لهم كفار قريش : أنتم أهل كتاب ونريد أن تبينوا لنا من الأهدى سبيلا نحن أم محمد -صلوات الله وسلامه عليه- ؟ قالوا : نحن نكرم الضيف ونفك العاني ونفعل كذا إلخ ، ومحمد رجل وأخذوا يذمونه عليه الصلاة والسلام ، فقال حيي ابن أخطب وكعب ابن الأشرف : أنتم أهدى من محمد سبيلا ؛ مع أنهما يعلمان أن أولئك كفار وعبدة أصنام ويعلمان ما عندهما من الكتاب في الآية الكريمة قال﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أن النبي عليه الصلاة والسلام هو الأهدى سبيلا يعلمان ذلك في قرارة أنفسهما ؛ ومع ذلك قالا

للكفار لما سألوهم ذلك السؤال : أنتم أهدى سبيلا؛ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي أن طريقتهم أفضل من طريقة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ والجبت : يتناول كل الأعمال الشركية الأعمال الباطلة؛ السحر وما شاكل ذلك كل ذلكم يدخل في الجبت .

والطاغوت: فُسِّر بأنه الشيطان ، وفسِّر كل من عُبد من دون الله وهو راض بذلك فهو طاغوت ، وفسِّر الطاغوت بالصنم –الأصنام– . ويجمع ذلك : أن الطاغوت يطلق على الطاغي من الأعيان ، والجبت هو متعلقٌ بالأقوال والأعمال ؛ السحر من الجبت ، العيافة وزجر الطير من الجبت ، أمور السحر الأخرى الكثيرة هذه كلها من الجبت . الأصنام من الطواغيت التي تُعبد من دون الله ؛ الشيطان طاغوت ، كل من عُبد من دون الله تبارك وتعالى وهو راض فهو طاغوت من الطواغيت .

قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ؛ فهذا فيه شاهد للترجمة أن هؤلاء اليهود مع ما عندهم من الكتاب والنصيب الذي عندهم من الكتاب مع ذلك كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت ، يؤمنون بالسحر والكهانة وغير ذلك من الأمور ، وأيضاً يؤمنون بالطواغيت مثل الشيطان والأصنام والأوثان وغير ذلكم من الطواغيت .

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يقولون للمشركين ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾أي أن طريقتهم أهدى من طريقة المسلمين . وطريقة المشركين هي عبادة الأصنام ، وطريقة المؤمنين توحيد رب العالمين وإفراده تبارك وتعالى بالعبادة .

هذه الآية الكريمة كلها من أولها إلى تمامها تتعلق باليهود وخبر عن اليهود ؛ فما علاقتها بالترجمة «أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» ؟ هذا سؤال يبقى في الأذهان إلى حين يأتي الجواب عليه .

الآية التي تليها ، قال رحمه الله :

وقوله تعالى : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ } [المائدة:٦٠] .

****

وهذه الآية الكريمة أيضاً كسابقتها تتعلق باليهود في ذكر أوصافهم القبيحة وأعمالهم الشنيعة ، لأن اليهود وُصفوا في هذه الآية بأوصافٍ عديدة .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لأن الآية التي قبل هذه الآية قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي أنكم تصِفون المسلمين بالأوصاف الشنيعة والألقاب السيئة ولا تنقمون منهم إلا أنهم آمنوا بالله ؛هذا الذي تنقمون منهم ، وأنهم وحدوا الله وأخلصوا دينهم لله واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي تنقمونه منهم ، فيقول الله: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يعني من له العقوبة الغليظة الشديدة عند الله تبارك وتعالى ، المراد بالمثوبة : أي العقوبة لأن الثواب والمثوبة تطلق على الخير وتطلق على العذاب ، تطلق على الإنعام وتطلق على العذاب ، وهي تُطلق على العذاب في الأغلب .

فيقول : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي عقوبة عند الله تبارك وتعالى من اتصفوا بالصفات التالية: ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ هذه مجموعة صفات لليهود :

الأولى : أنها أمة ملعونة لعنهم الله .

والصفة الثانية : أنها أمة غضبية مسخوط عليها ؛ غضب الله عليهم .

والصفة الثالثة : أن الله عز وجل جعل منهم القردة والخنازير ؛ أي مُسخ أفراد وجماعات من هؤلاء اليهود إلى قردة وخنازير ، ولم يجعل الله تبارك وتعالى لأمة ممسوخة نسلًا كما جاء هذا المعنى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم ، لما سُئل عليه الصلاة والسلام في حديث ابن مسعود هل القردة والخنازير الموجودة هي نسل هؤلاء ؟ فأخبر عليه الصلاة والسلام أنه لم يمسخ أمةً ويجعل لها نسلا ، وأن القردة والخنازير موجودة من قبل ذلك . لكن جماعة من اليهود مسخهم الله إلى قردة وخنازير ثم عاشوا مدةً وأهلكهم الله سبحانه وتعالى وهم على ذلك المسخ .

قال: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ وهذا موضع الشاهد من سياق الآية للترجمة ، وهو معطوف على قوله ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ ، من لعنه الله ومن غضب الله عليه ومن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت ؛ هذه مجموعة صفات لليهود، فمن بين صفات اليهود أنهم عبدوا الطاغوت ، فيهم من عبد الطاغوت، والطاغوت: الصنم، أي فيهم من عبد الأوثان هذا أمرٌ وجد في اليهود ، دلت الآية على أنه وجد في اليهود .

أعود للسؤال السابق ؛ هذه الآية تتعلق باليهود فما صلتها بالترجمة ؟ والترجمة تتعلق بأمة محمد عليه الصلاة والسلام «أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» . فيبقى السؤال قائماً إلى حين أن يأتي الجواب عليه .

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا } [الكهف:٢١] .

****

قال وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ؛ وهذا في السياق الذي يتعلق بأصحاب الكهف ، وأن الناس عندما ظهروا ووقفوا على أصحاب الكهف وعرفوا أنهم ناموا تلك النومة الطويلة ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، وأن الله عز وجل أكرمهم بهذه الكرامة الخارقة للعادة؛ اختلفوا في أمرهم ، فقال بعض الناس : ابنوا عليهم بنياناً ، لأنهم ماتوا في نفس الكهف في الغار الذي كانوا فيه في الجبل ماتوا جميعاً في المكان نفسه ؛ فبعض الناس قالوا ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ﴾ يعني يغلق الكهف عليهم إغلاقا محكماً بحيث لا يستطيع أي أحد أن يصل إليهم . لكن أهل الغلبة والنفوذ والسلطة قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ أي سنبني على هذا المكان الذي ماتوا فيه وهو الكهف مسجداً أي نبني بناء عالياً بحيث نقصد هذا المكان للتعبد والتقرب.

واختلف أهل العلم وممن حكى الخلاف في ذلك الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره في هؤلاء أهل الغلبة الذين قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ هل هم كفار أو مسلمون ، وذكر في ذلك قولان لأهل العلم :

- من أهل العلم من قال: أن هؤلاء كفار، قوم من الكفار وأهل نفوذ وقالوا هذه المقالة ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ .
- وقيل إنهم مسلمون .

وعلى فرض أنهم مسلمون وليسو كفاراً فهم جهلة بدين الله تبارك وتعالى ، وجهلهم بدين الله تبارك وتعالى جرَّهم إلى هذا الغلو ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ، ويدل لذلك أن نبينا عليه الصلاة والسلام صح عنه في الحديث أنه قال: ((أولئكِ شرار الخلق عند الله يوم القيامة؛ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا قال أولئك شرار الخلق عند الله)) ، وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) والحديثان تقدما معنا عند المصنف رحمه الله تعالى في ترجمة سابقة .

فإذاً لعْن النبي عليه الصلاة والسلام لمن يفعل هذا الفعل وإخباره عنهم بأنهم شرار الخلق يدلنا على أن هؤلاء الذين قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ إن كانوا في الأصل مسلمين فهم من الجهلة الذين يجرهم جهلهم بدين الله إلى الغلو في الأولياء والصالحين بمثل هذا الغلو الذي حرَّمه الله سبحانه وتعالى بدليل لعْن النبي صلى الله عليه وسلم من يفعل ذلك .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بعض كتبه جزم أن هؤلاء الذين قالوا ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ أنهم من النصارى ، ويتناولهم قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) .

هذا الحديث أيضاً حديث يتعلق بمن قبلنا على قول الذي أشرت ليه لشيخ الإسلام ابن تيمية أنهم من النصارى ، وابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أشار في قول أهل العلم أنهم جماعة من الكفار ليسو من المسلمين ؛ فالآية تتعلق بأناس قبل أمة محمد فما صلته بالترجمة ؟

الآية الأولى تتعلق باليهود ، والآية الثانية تتعلق باليهود كذلك ، والآية الثالثة تتعلق بالنصارى ، والترجمة عقدها رحمه الله تعالى في «أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» فما صلة هذه الآيات الثلاث بالترجمة ؟

جواب ذلكم يأتي في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله :

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا : يا رسول الله ؛ اليهود والنصارى ؟ قال : «فمن ؟!» أخرجاه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو مخرَّج في الصحيحين أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((**لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**)) سَنن : أي طريق . لتتبعن سنن من كان قبلكم : أي طريق من كان قبلكم . وهذا خبر لكنه خرج مخرج الإنذار والتخويف من ذلك ، فهو يخبر عليه الصلاة والسلام بأنه سيوجد في الأمة من يتبع سَنن من كان قبلنا أي يسلك مسالكهم وينهج مناهجهم ويعمل مثل أعمالهم ، قال ذلك منذراً ومحذِّراً صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**)) ؛ القذة: مفرد قُذَذ ، والقُذَّة : هي ريشة السهم ، وإذا جئت بعدد من السهام ونظرت إليها لا تجد بينها فرقاً ، تجدها متساوية متماثلة متطابقة تماما . فإذاً قوله عليه الصلاة والسلام ((حذو القذة بالقذة)) أي مثل ما تشبه ريشة السهم ريشة السهم الأخرى ، لو جئت بسهمين ونظرت في ريشة كل واحدٍ منهما لا تجد فرقاً بين هذه وهذه . فإذًا قوله ((حذو القذة بالقذة)) أي أنه سيوجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيعمل مثل أعمال اليهود ومثل أعمال النصارى عملاً مطابقاً تماماً لما كانوا يعملونه ((حذو القذة بالقذة)) ، وجاء في بعض الأحاديث ((شبراً شبرا ذراعاً ذراعا)) .

والنبي عليه الصلاة والسلام أكد هذه المتابعة التي ستوجد في بعض الأمة أمة محمد عليه الصلاة والسلام : باللام في قوله ((لتتبعن))، وبنون التوكيد ، وبذكر هذا المثل ((حذو القذة بالقذة)) ، وبأيضاً قوله عليه الصلاة والسلام ((**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**)) ؛ والضب : حيوان من الحيوانات التي تعيش في البراري وهو من الزواحف، ويمتاز جحر الضب عن غيره من جحور الزواحف وغيرها يمتاز بأنه وعِر للغاية وملتوي وضيق ورديء، كل هذه الصفات مجتمعة فيه، والجحور كثيرة جداً اختار من بينها عليه الصلاة والسلام جحر الضب دون غيره لأنه جحرٌ رديء وضيق ووعر وملتوي ، ولهذا من يريد أن يصطاد الضب يتعب في اصطياده لأن جحره متلوي جداً ، ليس جحرًا مستقيما وإنما جحر في التواءات كثيرة جداً ، حتى لو أراد أن يحفر حتى يصل إليه ما يصل إليه إلا بصعوبة بالغة جداً ، لكثرة الالتواءات التي في جحره . فقوله ((**حتى لو دخلوا جحر ضب**)) هذا ذكره على سبيل المبالغة في بيان هذا الأمر ، أي أنهم لو فعلوا أعمالاً رديئة جدا ووعرة ومتلوية ومعقدة وشديدة في السوء أيضاً سيوجد في الأمة من يفعل ذلك . قال ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) .

((**قال الصحابة رضي الله عنهم : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟**)) يعني تعني اليهود والنصارى ؟

قال عليه الصلاة والسلام : ((**فمن ؟!**)) والاستفهام هنا استفهام إنكاري أي من القوم إلا هؤلاء! اليهود والنصارى . فهذا الحديث صريح جدا وهو في الصحيحين أن في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيتَّبع اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة شبراً شبرا ذراعاً ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، لو فعلوا ما فعلوا .

وبهذا الحديث يتبين مراد المصنف رحمه الله تعالى من سوق الثلاث آيات المتقدمات؛ الأولى والثانية منهما تتعلق باليهود والثالثة تتعلق بالنصارى ، فإذاً اليهود مع ما عندهم من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ يعني يؤمنون بالسحر والكهانة والشعوذة ، وأيضاً الطاغوت الذي هو الشيطان أو الأصنام هذا يؤمنون به ، ومع ما عندهم من الكتاب فضَّلوا دين المشركين على دين سيد ولد آدم أجمعين محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ ؛ وهذا يفيد أنه بعض الأمة من سيفضِّل دين المشركين ودين الكفار على دين محمد عليه الصلاة والسلام ، مثل ما وقع عند اليهود سيقع أيضاً مثل ذلك في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وسيوجد أيضاً في أمة محمد من يؤمن بالجبت والطاغوت .

وأيضا ما دلت عليه الآية الثانية ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾أي أن اليهود كان فيهم من يعبد الأصنام ، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي عبد الأصنام والأوثان فإذا كان فيهم من فعل ذلك أيضاً دل حديث أبي سعيد أن في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيفعل ذلك .

والآية الثالثة في سورة الكهف ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ كما أن هذا الأمر وُجد في النصارى قبلنا أيضاً سيوجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام من سيتخذ على قبور الصالحين مساجد ، وهذا الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام وُجد كما أخبر صلى الله عليه وسلم لأنه لا ينطق عن الهوى ، ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) . والحديث حديث أبي سعيد يوضح المقصود من إيراد المصنف رحمه الله تعالى للآيات الثلاث التي صدَّر بها هذه الترجمة .

قال رحمه الله :

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلِّط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال : يا محمد إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يُرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا » .

ورواه البُرقاني في صحيحه وزاد : « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى » .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بحديث ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**)) ؛ زوى لي الأرض : أي جمع لي أطرافها وطوى لي أطرافها ، فأصبح عليه الصلاة والسلام وهو في مقامه يرى مشارق الأرض ومغارب الأرض ، يرى أقصى الدنيا من جهة المشرق وأقصاها من جهة المغرب ، يرى ذلك عليه الصلاة والسلام في الجهتين جهة المشرق وجهة المغرب .

قال ((إن الله زوى لي الأرض)) أي جمع وضمَّ أطرافها ؛ أطراف الأرض من هاتين الجهتين جهة المشرق وجهة المغرب ((فرأيت مشارقها ومغاربها)) رأى عليه الصلاة والسلام في مقامه ذلك مشارق الأرض ومغاربها ، يعني رأى إلى أقصى المشرق وإلى أقصى المغرب ؛ صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال: ((**وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زوي لي منها**))؛ سيبلغ ملك أمة محمد عليه الصلاة والسلام ((ما زوي لي منها)) وهذا إخبارٌ عن أمرٍ يقع في المستقبل ؛ أن ملك الأمة سيبلغ ما زوي له عليه الصلاة والسلام منها أي من الأرض ، وهو عليه الصلاة والسلام زوي له هنا كما أخبر مشارق الأرض ومغاربها ، يعني زويت له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ، لم تُذكر جهة الشمال ولا جهة الجنوب وإنما المشرق والمغرب ، وهذا الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام حصل في زمان الخلفاء الراشدين ؛ امتدت رقعة الديار الإسلامية من جهة المشرق وامتدت أيضا من جهة المغرب ولم يحصل اتساع من جهة الجنوب ولا من جهة الشمال ، لأن الذي أخبر عنه عليه الصلاة والسلام إنما هو من جهة المشرق ومن جهة المغرب ، وهذا من آيات النبوة ، والحديث مليء بآيات وعلامات على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام في أمور كثيرة أخبر أنها ستقع في المستقبل ، ووقعت كلها طبقاً لما أخبر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

آية أخرى قال : ((**وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**)) وهذا إشارة لحصول المسلمين على كنوز قيصر وكسرى ، يعني كنوز فارس وكنوز الروم ، والروم كان أغلب كنوزهم الذهب ، والفرس كان أغلب كنوزهم الجواهر والفضة ، ولهذا قال هنا ((أعطيت الكنزين الأحمر)) أي كنز الروم ((والأبيض)) أي كنز فارس لأن هذا الأغلب كان عندهم؛ فهذا فيه إشارة إلى أن المسلمين سيفتحون فارس والروم ويظفرون بما عندهم من كنوز تكون غنيمة للمسلمين ، أخبر بذلك ووقع طبقًا لما أخبر صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**وإني سألت ربي**)) أي دعوت الله سبحانه وتعالى ((**لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**)) السَّنة :هي الجدب والقحط ، وقوله ((بسنةٍ بعامة)) وأيضا تروى في بعض المصادر ((بسنةٍ عامة)) أي تعم الجميع وتُهلك الجميع .

((**وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم**)) أي عدواً من غيرهم؛ أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم ((**فيستبيح بيضتهم**)) وبيضة القوم: هي ساحتهم ، وقيل بيضة القوم: معظمهم . والمراد بهذه الدعوة أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا الله تبارك وتعالى أن لا يسلط الكفار على المسلمين تسليطًا عاما في كل ديار المسلمين فيستبيحون بيضتهم أو يهلكون معظمهم ؛ فهذا لا يكون ، دعا النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يكون ذلك .

قال : ((**وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد**)) وفي الدعاء ((ولا راد لقضائك)) أي أن الله عز وجل إذا قضى قضاءً وأبرم أمراً فإنه لا يرد ، لأن قدرته تبارك وتعالى شاملة ومشيئته نافذة ، فما شاء وقع طبقاً لما شاء لا راد لحكمه سبحانه وتعالى ولا معقب لقضائه .

قال: ((**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ بعامة**)) أي لا يحصل لأمتك قحط وجدب ومجاعة تهلك الجميع ، ولا يمنع ذلك أن يحصل شيء من ذلك في بعض الديار ، لكن أن يحصل قحط عام وسنة عامة

تستأصل الجميع وتهلك الجميع هذا لا يكون ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم الله عز وجل أن لا يهلك الأمة أمته بسنة بعامة .

والأمر الثاني قال : ((**وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**))؛ وهذا أيضا فيه إجابة الله سبحانه وتعالى لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيح بيضتهم أي يهلك معظمهم ويستولي على معظم ديارهم ، فأجاب الله سبحانه وتعالى قال: ((وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم)).

((**ولو اجتمع عليهم من بأقطارها**)) يعني لو اجتمع عليهم الكفار أجمعين لتحقيق ذلك لن يكون ذلك .

قال: ((**حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا**)) وهذه مصيبة المسلمين ومصيبة العالم الإسلامي؛ أن بأسهم بينهم والشيطان يحرِّش يبينهم ، وتجد المسلم يقتل المسلم ، وتجد المسلم أيضاً ظلم المسلم ويبغي عليه في ماله وفي دمه وفي عرضه، فجاء في الحديث قال ((حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضا)) .

قال: ((**ورواه البُرقاني في صحيحه**)) وأيضا رواه أبو داود في سننه باللفظ الذي ساقه بالزيادة التي أيضاً ساقها.

((**وزاد : وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**)) ؛ انظر فيما سبق وإجابة الله لدعوة نبيه فلا يخاف النبي على أمته أن يحصل لهم سنة عامة تهلك الجميع ، ولا يخاف أيضاً على أمته أن العدو يتسلط عليهم ولو اجتمع العدو كلهم على ذلك لاستئصال المسلمين ، ثم يقول في السياق نفسه : ((إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ؛ والأئمة المضلين يتناول:

- أمراء الشر والفساد والباطل والحكم بغير ما أنزل الله ؛ فهؤلاء هلاك لمن تحتهم وضرر عظيم جداً على من تحتهم .
- ويتناول أيضاً علماء السوء وهؤلاء خطرهم على الناس عظيم جدا ، علماء السوء وعلماء الباطل وعلماء الضلال هؤلاء من أخطر ما يكونون على الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام خاف على أمته منهم خوفاً عظيما . وعالم السوء يضل الناس كما أنه ضالٌ في نفسه فإنه يضل الآخرين ويزين لهم الحرام ، ويُضعِف فيهم المحافظة على الفرائض وطاعة الله سبحانه وتعالى ، وينشر فيهم المحرمات والشهوات ، وأيضا ينشر فيهم الشبهات ، ينشر فيهم البدع والضلالات ؛ فكان النبي عليه الصلاة والسلام يخاف على أمته من الأئمة المضلين ومنهم علماء السوء .
- أيضا يدخل في هؤلاء العبَّاد الذين يعبدون الله على غير بصيرة فصاروا قدوةً للآخرين يأتمُّون بهم في عبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، وكم يكون الناس يتضررون عندما يكون في منطقتهم أو في حيهم أو في ديارهم رجل عابد ومواظب على العبادة جداً لكنه صاحب بدعة ، عبادته على بدع وضلالات ، كم يكون ضرره على الناس!! لأنه سيكون قدوة للناس .

فهذه الأصناف الثلاثة الأمراء والعلماء والعبَّاد يتناولهم قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) . وانظر في أنواع الباطل التي وُجدت في الناس من البدع الاعتقادية والبدع العملية؛ تجدها كلها

مرتبطة بأئمة ضلال أسَّسوا ذلك الباطل للناس وأخذوه عنهم وتلقوه عنهم وأصبحوا أيضا في باطلهم ينتسبون إلى أشياخ الضلال الذين أخذوا عنهم ذلك الباطل وتفرقوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون .

قال عليه الصلاة والسلام : ((**وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة**)) وهذا أيضاً علَم من أعلام النبوة؛ إذا وقع عليهم السيف يعني إذا رُفع السيف من بعض المسلمين على بعض لم يرفع إلى يوم القيامة ، وهذا وقع طبقاً لما أخبر عندما رُفع السيف على عثمان بن عفان رضي الله عنه –وهو أول رفعٍ للسيف حصل– لم يُرفع إلى يوم القيامة بقي على هذه الحال ، نعم يقِل في بعض الأوقات ويكثر في بعض الأوقات لكنه بقي مستمرًا كما أخبر النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين**)) أي يرتدون عن الإسلام ويلحقون بالمشركين معتقدين عقائدهم فاعلين مثلهم عابدين الأصنام مثلهم .

((**وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**)) أي جماعات من أمتي الأوثان ، وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الحديث الطويل في هذه الترجمة ، لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام أي جماعات من أمة محمد عليه الصلاة والسلام الأوثان . فهذا شاهد وهو صريح في الدلالة على الترجمة أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ، فنبينا عليه الصلاة والسلام أخبر في هذا الحديث أن الساعة لا تقوم حتى تعبد فئام أي جماعات من أمته عليه الصلاة والسلام الأوثان ، مثل هذا ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ))؛ وذي الخلصة: وثن من الأوثان كانت تعبده دوس ، وأيضا ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قال عليه الصلاة والسلام ((لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى)) . هذه أحاديث صريحة ولها نظائر عديدة في سنة النبي عليه الصلاة والسلام في أن بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم سيقعون في عبادة الأوثان ، وهذا هو المقصود من سياق هذا الحديث أو موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة .

قال : ((**وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي**)) وهذا أيضاً من علامات النبوة ، يخبر عن أمرٍ سيكون في المستقبل، وذكر العدد قال ((كذابون ثلاثون)) أي عددهم ثلاثون ، ومن يستقرئ التاريخ وأحوال الناس يجد أن من ادَّعوا النبوة أكثر من هذا العدد بكثير ، فيكون المراد بقوله ((كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي)) أي ممَّن يكون له شوكة وظهور وأتباع ، لكن يوجد في مجتمعات الناس كثيرا ، بعض الناس مثلاً يصاب عقله بعطب أو يتعاطى مثلا مخدرات أو مسكرات ويصبح فاقد للوعي وتجده مختل العقل ويقول أنا نبي ولا أحد يلتفت له ، ومَن حوله يقولون مسكين مجنون ، هذا يحصل كثير جداً ، لكن المراد بهذا العدد «ثلاثون» يعني يكون لهم ظهور ولهم شوكة ولهم أتباع ؛ مثل مسيلمة الكذاب ، ومثل سِجاح ، والمختار الثقفي ، والأسود العنسي ، عدد

كبير جداً يبلغ هذا العدد الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام ، أما من سوى ذلك فأعداد كثيرة لكن لا يكون لهم شوكة ولا يكون لهم ظهور ولا يكون لهم أتباع .

قال: ((**وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**)) قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

قال : ((**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله**)) وهذه بشارة ختَم بها عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ، لما ذكر خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وذكر أن في حي من أمته يلحقون بالمشركين ، وذكر أن فئام من الأمة تعبد الأوثان ، وذكر أيضاً أنه سيكون في الأمة كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ؛ لما ذكر هذه الأمور التي ذكرها تخويفاً وتحذيراً وإنذاراً من هؤلاء ، بشَّر عليه الصلاة والسلام بعدما أنذر فيما سبق بأنها لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة ؛ وهذه الطائفة هي الطائفة المتمسكة بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، المخلِصة دينها لله تبارك وتعالى ، المقتفية في أعمالها هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، البعيدة عن البدع والخرافات والأمور التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

والشاهد من الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام ((حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) ؛ وهذا له نظائر عديدة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وينبغي أن يُعلم أن هذا كلام مُحكَم واضح وظاهر وبيّن؛ أن في الأمة من سيقع في عبادة الأوثان ، لكن بعض الناس الين ابتلوا بشيء من الضلال والباطل والتعلق بالأعمال الشركية يتركون هذه النصوص المحكمة ويستدلون بأحاديث متشابهة ويقضون بالمتشابه على المحكم على طريقة أهل الزيغ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧] . مثلاً : صح في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إن الشيطان يئس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب)) قال بعض المضلين : إن هذا الحديث نص أنها لن تقع عبادة الأوثان في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه في الحديث قال ((إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب)) ، وما فهِم هؤلاء الحديث حتى يجعلونه قاضياً على الأحاديث الصريحة التي وردت في أن بعض أمة محمد صلى الله عليه وسلم تعبد الأصنام وهي في الصحيحين وفي غيرهما .

والحديث يدل أن الشيطان لما رأى الدين وانتشاره وإقبال الناس عليه ودخولهم فيه أفواجاً حصل عنده يأس من رجوع هؤلاء إلى الكفر ، لأنه رأى الدين بازدياد قوي وانتشار عظيم والناس تدخل في دين الله أفواجا فحصل عنده يأس ، هذا اليأس الذي وقع عنده لا يدل على أن الشرك لن يقع وأن عبادة الأوثان لن تقع ، لأن هذا يأس حصل للشيطان عندما رأى ظهور الدين وانتشاره ودخول الناس فيه أفواجاً ، نظير ما جاء في الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ

يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾[المائدة:٣] ، لأنهم رأوا الدين في ظهور فحصل يأسٌ من أن يرجع هؤلاء الذين أسلموا عن دينهم كفاراً بعد أن هداهم الله ومنَّ عليهم بهذا الدين العظيم . فإذاً هذا يأس حصل للشيطان وهو منسوب إليه مضاف إليه ((إن الشيطان يئس)) ، أيضا لم تأتي في صيغة الحديث «يُئِّس» بالبناء لما لم يُسمَّى فاعله قال ((إن الشيطان يَئِس)) أضاف هذا اليأس إلى الشيطان ، فلا يعارض هذا الأحاديث الصحيحة الصريحة أن فئام من أمة محمد عليه الصلاة والسلام تعبد الأوثان .

ثم إن نبينا عليه الصلاة والسلام عندما قال ((لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) لماذا قال ذلك ؟ يجب أن نعرف ذلك قال ذلك محذرا الأمة من عبادة الأوثان ، وأن الواجب على كل إنسان أن يحذر في نفسه حذرا شديداً من أن يعبد الأوثان لأن عبادة الأوثان ستقع في أمة محمد ، فيجب على كل مسلم أن يجاهد نفسه وأن يعمل على إنقاذها منى الوقوع في عبادة الأوثان ؛ دعاءً يدعو الله عز وجل أن يعيذه من الشرك وأن يجنبه الشرك وأن يجنِّبه عبادة الأصنام ، وأخذاً بالأسباب ، ومن أعظم ما يكون تعلم التوحيد ودراسته والوقوف على أدلته وبراهينه مثل ما في هذا الكتاب المبارك كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، وكله كما رأينا آيات مأخوذة من كتاب الله وأحاديث منتخبة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام في بيان التوحيد وتقريره والتحذير من نواقضه ونواقصه .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية النساء .

وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ، والشاهد من الآية: أن هذا الأمر كما أنه وُجد في اليهود فسيوجد أيضاً في بعض أمة محمد عليه الصلاة والسلام كما دل على ذلك حديث أبي سعيد .

الثانية : تفسير آية المائدة .

وهي قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

وهي قول الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ، وعرفنا أن هذا العمل كما أنه وقع في الأمم التي قبلنا فإنه سيقع في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ كما دل عليه الحديث ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) ، وكما يدل عليه الواقع المشاهَد .

الرابعة –وهي أهمها– : ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع ؛ هل هو اعتقاد قلب ؟ أو هو موافقة أصحابها مع بُغضها ومعرفة بطلانها ؟

هذه مسألة مهمة جدًا ينبّه عليه الشيخ رحمه الله تعالى في الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ ؛ يقول رحمه الله : ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع تحديداً ؟ هل هو اعتقاد قلب ؟ يعني هل هؤلاء كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت عن اعتقاد قلب ؟ أو أنه موافقة أصحابها الذين هم المشركون عندما ذهب حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف إلى المشركين وسألوهم قالوا من أهدى سبيلا نحن أو محمد؟ لما قالوا أنتم أهدى سبيلا ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ فهل قالوا ذلك عن اعتقاد أن عبادة المشركين للأصنام أهدى سبيلاً من عبادة النبي صلى الله عليه وسلم لله بالتوحيد والإخلاص؟ وهم عندهم نصيب من الكتاب هل قالوا ذلك عن اعتقاد قلب ؟ أو قالوا ذلك موافقةً لأصحابها ؟ الجواب: أن هؤلاء قالوا ذلك موافقةً لأصحابها لا يعتقدون عبادة الأصنام الذي يعبدها المشركون في مكة ، لكنهم قالوا ذلك موافقة لأصحابها؛ فمع أنهم لم يقولوا ذلك عن اعتقاد قلب وإنما قالوه موافقةً لأصحابها وصفهم الله بأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت .

الخامسة : قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلا من المؤمنين .

«قولهم» يعني هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب «إن الكفار الذين يعرفون كفرهم» يعني هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعرفون كفر كفار قريش الذين يعبدون الأصنام، ومع معرفتهم بكفرهم قالوا «هؤلاء أهدى سبيلاً من المؤمنين» أي طريقتهم أفضل من طريقة المؤمنين . وهذا الأمر كما أنه وقع في اليهود أيضاً سيقع في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ سيوجد فيهم من يفضّل دين المشركين على دين المسلمين ، لحديث أبي سعيد الذي أورده المصنف في الترجمة .

السادسة – وهي المقصودة بالترجمة – : أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

السادسة وهي المقصودة بالترجمة أن هذا لابد أن يوجد ، الإشارة في قوله «هذا لابد أن يوجد» أي ما جاء في الآيات الكريمات التي ساقها المصنف ؛ الآية الأولى والآية الثانية والآية الثالثة كل هذه الأشياء كما أنها وقعت في اليهود والنصارى فإنها ستوجد في أمة محمد عليه الصلاة والسلام كما تقرر في حديث أبي سعيد .

السابعة : تصريحه بوقوعها ؛ أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة .

أي كما في حديث ثوبان عندما قال عليه الصلاة والسلام: ((وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) ، وقوله «فئام» أي جموع كثيرة .

الثامنة : العجب العجاب : خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه أنه من هذه الأمة ، وأن الرسول حق ، وأن القرآن حق وفيه أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يصدَّق في هذا كله مع التضاد الواضح ، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبِعه فئام كثيرة .

هذه المسألة الثامنة من المسائل المتعلقة بهذا الباب قال : العجب العجاب ؛ خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة وأن الرسول حق وأن القرآن حق ، وفيه أن محمدا خاتم النبيين ، «فيه» : أي القرآن ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] . فالمختار الثقفي كان ينطق بالشهادتين ويصرّح بأنه من هذه الأمة ويصرّح بأن الرسول حق وأن القرآن حق والقرآن فيه أن محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ومع هذا ادَّعى النبوة ، ومع هذا أيضاً وُجد من صدَّقه . ومع هذا يصدَّق في هذا كله مع التضاد الواضح؛ يعني بين ما يدعيه وما يدَّعي أنه يؤمن به .

التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما ومضى ، بل لا تزال عليه طائفة .

لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث ثوبان ((ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله)) ؛ فهذا فيه بشارة بأن الحق باقٍ ولا يزول كما زال فيما مضى .

العاشرة : الآية العظمى ؛ أنهم مع قِلّتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم .

الآية العظمى : أي بما يكون لهؤلاء من مد وعون وتوفيق ونصر من الله تبارك وتعالى أنهم مع قلّتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، بمعنى أنهم منصورون بنصر الله ، مؤيَّدون بتأييده تبارك وتعالى .

الحادية عشرة : أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة .

أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة لأنه قال في الحديث ((ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله)) ، والمراد بالساعة : أي ساعة هؤلاء التي تُقبض فيها أرواحهم عندما يبعث الله في آخر الزمان ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ثم لا يبقى إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة .

الثانية عشرة : ما فيه من الآيات العظيمة ؛ منها إخباره بالله زوى له المشارق والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال ، وإخباره بأنه أعطي الكنزين ، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في اثنتين ، وإخباره بأنه مُنع الثالثة ، وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرفع إذا وقع ، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا ، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين . وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة . وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

هذه المسألة الثانية عشرة : ما فيه –أي حديث ثوبان رضي الله عنه– من الآيات العظيمة الدالة على نبوة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام حيث أخبر عن أمور كثيرة أنها ستقع في المستقبل ووقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام ؛ فكان ذلكم آية من آيات نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

أي في حديث ثوبان في قوله عليه الصلاة والسلام ((وإنما أخاف أمتي الأئمة المضلين)) و«إنما» من أساليب الحصر في لغة العرب ، وهذا الحصر يفيد الخوف الشديد العظيم الذي كان يخافه صلوات الله وسلامه عليه على أمته من أئمة الضلال .

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

وفي حديث ثوبان قال ((وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) ، ومر معنا معنى عبادة الأوثان: أي كل من عُبد من شجر أو حجر أو قبر أو غير ذلك ، كل من عُبد من دون الله تبارك وتعالى فهو وثن من الأوثان .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .